المدرسة العليا للأساتذة : الأغواط

الملتقى الوطني : جهود أدباء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تأصيل الثقافة الوطنية

يوم 11 ديسمبر 2024

اسم ولقب المشارك : إيمان بوقردون

الجامعة : جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية– قسنطينة.

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

قسم اللغة العربية .

الرتبة : أستاذ محاضر –أ–

البريد الإلكتروني : imenbouk319@gmail.com

محور المداخلة : المحور الثاني : جهود ترسيخ الوعي الثقافي في نفوس الجزائريين .

عنوان المداخلة : الأنساق الثقافية في الرحلات الحجازية لعلماء الجمعية

" رحلتي إلى البقاع المقدسة " لـ باعزيز بن عمر أنموذجا.

الملخص

الرحلة وعاء ثقافي وفكري في التراث الإنساني وسبيل للتقارب بين المجتمعات، تلعب دورا أساسيا في نشوء التنوع الثقافي وربط الخصوصية الذاتية بالغيرية ؛ فهي في وجودها الفعلي أو تمثلها اللفظي شكل من أشكال التواصل تكشف نقاط الالتقاء بين ثقافة الأنا والآخر ومنها الرحلة الحجازية إذ نجد الرحالة فيها يجمع بين دوافعه العقائدية وبين معرفة الآخر المجهول .

ورحلة " باعزيز بن عمر" – من أعلام الجمعية – واحدة منها أين تعددت الأنساق الثقافية وحمولاتها داخل بنية هذا المنجز النصي ؛ أهمها :

نسق ثقافي/ اقتصادي تحدث فيه عن منجزات الحضارة الغربية والتقدم العلمي– في المحطات التي مر بها– رغبة منه في تحريك النفوس العربية للسير في ركب الحضارة .

نسق ثقافي/ ديني أين ركز على مشاعر الشوق التي تعتري المسلم تجاه تلك الأماكن المقدسة ومعالمها.

نسق ثقافي/ اجتماعي أين قدم طرحا عميقا للمشكلات التي تنخر جسد الأمة الإسلامية من غياب للنظام وجهل بتعاليم الدين حوَّل مثل هذه المناسبات إلى تجمعات تغيب فيها الروحانيات والمقاصد الحقيقية.

الكلمات المفتاحية : الرحلة ، الحجاز ،جمعية العلماء ، باعزيز بن عمر .

Abstact :

Travelling is a cultural and intellectual pot of human heritage and a way of rapprochement between societies, playing an essential role in the emergence of cultural diversity and linking self-privacy to others; In its actual existence or verbal representation, it is a form of communication that reveals the points of convergence between the culture of ego

and the other, including the Hajazi journey, where travellers combine their ideological motives with the knowledge of the other unknown.

The journey of "Baaziz Ben Omar" -- from the flags of the Society -- one of which is where cultural stereotypes and payloads are multiplied within the structure of this text accomplishment; The main ones are:

A cultural/economic format in which he spoke about the achievements of Western civilization and scientific progress - in the stations he went through - in his desire to move Arab souls to walk in the knee of civilization.

A cultural/religious format where he focused on the longing of Muslims towards those holy sites and their monuments.

A cultural/social coordinator where he presented a profound explanation of the problems that undermine the body of the Islamic Ummah from the absence of the regime and ignorance of the teachings of religion turned such occasions into gatherings in which spirituality and true purposes are absent.

Keywords: Trip, Hijaz, Scholars Association, Baziz Ben Omar.

مقدمة

الرحلة انتقال للذات في جغرافيات و حضارات مختلفة تأبى أن تعود إلى مستقرها إلا وقد أصبح الآخر جزءا منها فتتشكل حدود الثنائية (الأنا /الآخر) أين تسبح في بحرها الكثير من الصور والانطباعات و المشاهد الدينية والتاريخية والعمرانية المختلفة.

ما يعني أن الرحلة تحقق التواصل و الانفتاح على ثقافات الشعوب المغايرة وتقدم للقارئ صورا مختلفة تجمع بين الإفادة و الإمتاع خاصة بعد تحولها إلى نص/خطاب يمكن القارئ من الانتقال إلى تلك العوالم المختلفة ، وهو الحال في نص باعزيز بن عمر " رحلتي إلى البقاع المقدسة " وهي رحلة حجازية تحمل في ثناياها الكثير من الأنساق الثقافية؛ ولا غرو؛ فالخطاب الرحلي خطاب مثقل بالأفكار تدون فيه الملامح الإنسانية للبقاع المرتحل إليها وكذا الاقتصادية و المعمارية و الثقافية و الاجتماعية و الجغرافية..

1– أهمية الدراسة

يحمل الأدب الرحلي سمة الانفتاح كونه لا يؤمن بالحدود ويرفض التسيج و القيود ، وكذا سمة العالمية بوصفه للتجارب الإنسانية وجعلها مادته الخام، ولذا فالاشتغال على أدب الرحلة يجسد ماهية التقارب المعرفي و التلاقح الفكري للحضارات الإنسانية المختلفة بما فيها من ثقافات و عادات و تقاليد و معايش مختلفة كما أنها كإبداع أدبي كان لها دورها في النهضة الأدبية و الفكرية للعالم العربي بل ساهمت في خدمة الحركات الإصلاحية من جوانب متعددة .

2– أهداف الدراسة

التعريف بالشيخ باعزيز بن عمر وبأعماله الأدبية كواحد من أهم الأعلام في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

استنطاق خطابه الرحلي واستخراج ما فيه من حمولات ثقافية تصور العلاقة بين الذاتية و الغيرية وما بينهما من تقاطع و اختلاف .

3– إشكالية الدراسة

تسعى هذه الورقة البحثية للإجابة عن أسئلة أهمها :

1- كيف ساهمت جهود علماء الجمعية في ترسيخ الوعي الثقافي في نفوس الجزائريين

2- هل هناك علاقة بين أدب الرحلة و الحركة الإصلاحية في الجزائر ؟

3- لماذا يعتبر الخطاب الرحلي خطابا محملا بالأنساق الثقافية المضمرة؟

4- ما هي أهم الأنساق الثقافية في الرحلة الحجازية للشيخ باعزيز بن عمر؟

1- منهج الدراسة

تحاول هذه الدراسة تطبيق مقاربات النقد الثقافي والتي تعتبر الأنساق الثقافية أبرزها؛ بالرغم من صعوبة تطبيقه على النصوص بصفة عامة؛ و النص الرحلي بصفة خاصة كونه نصا متشعبا إضافة إلى عدم وجود معالم واضحة تعتمدها الدراسات الثقافية ما يصعب عملية قراءة وتحليل النصوص.

2- الدراسات السابقة

لم تلق أعمال الشيخ باعزيز –على قلتها- العناية الكافية من قبل الباحثين والاشتغال عليها يكاد يكون غائبا؛ أما رحلته هذه فلم تنل حظها من الدراسة ؛وما وقع بين أيدينا هو مقال محمد بن محمد العطوي بن سمينة بعنوان : قراءة في كتاب "رحلتي إلى البقاع المقدسة" للأستاذ الشيخ باعزيز بن عمر وقد أثنى عليه و على جهوده الإصلاحية ..

أولا –الرحلة : الحدود والدوافع

إن الإنسان منذ أن يولد حتى يموت في رحلات دائبة تتعدد أشكالها بمرور الأيام وبتغير الظروف و الأحوال بل إن لحظات ميلاده تعد رحلة من رحم الأم إلى دنيا البشر وما وفاته ودفنه إلا رحلة ينتقل فيها من دنيا البشر إلى رحم الأرض تمهيدا لرحلة نهائية وسرمدية، وهناك رحلات أخرى متباينة على طريق العلم من مرحلة إلى مرحلة وعلى طريق النضج من عمر إلى عمر " لكننا وفي هذه الورقة البحثية نعنى بالرحلات الفعلية المحدودة بالزمان و المكان والتي خاض فيها أصحابها تجارب ومغامرات ثرة أبوا إلا أن ينقلوها لغيرهم معبرين فيها عن رؤية معينة عن طريق السرد و الوصف ...[1]

1- دوافعها

تتعدد الدوافع التي تبعث في الإنسان الرغبة للترحال وتختلف من شخص لآخر، لكنها في أغلب الأحيان لا تخرج عن الأسباب الآتية :

- **دوافع علمية أو تعليمية**

بغرض الاستزادة من العلم و اكتساب معارف جديدة و لقاء العلماء و النهل من معينهم وذلك في مجالات مختلفة كالفقه و الطب و الفلسفة وتذكر كتب الحديث و السير أن من الفقهاء و العلماء من كان يقطع القفار ويعبر الأنهار طلبا لحديث نبوي سمع به أو لمجرد التحقق من كلمة فيه

- **دوافع سياسية**

كالوفود و السفارات التي يبعث بها الملوك و الحكام إلى ملوك وحكام دول أخرى لتبادل الرأي و توطيد العلاقات أو لمناقشة شؤون الحرب و السلام أو تمهيدا لفتح أو تهديدا بغزو

[1] فؤاد قنديل ، أدب الرحلة في التراث العربي ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، ط2 ، 2002، ص 18

- **دوافع سياحية و ثقافية**

تصدر عن رغبة في السفر لذاته وحب التنقل وتغيير الأجواء المناظر و تجديد الدماء بالمشاهدة و المغامرة وا* كتساب الخبرة بالمسالك و الطباع أو لزيارة الآثار و الأبراج أو الكهوف و الوقوف على الغرائب و العجائب...

- **دوافع اقتصادية**

للتجارة و تبادل السلع أو لفتح الأسواق أو البحث عن فرص للعمل و توسيع الرزق ..

- **دوافع صحية**

كالسفر للعلاج والاستشفاء أو إراحة النفس من ألوان العناء و تخليصها من الكدر كالارتحال إلى المناطق الريفية أو الجبلية ، أو هروبا من وباء أو مرض أو تلوث ..

- **دوافع دينية**

كالرحلة في سبيل نشر الدين والتعريف به، أو كالارتحال إلى البقاع المقدسة من أجل أداء مناسك الحج و العمرة وهو ما يعرف بالرحلة الحجازية .

والرحلة الحجازية من أهم أنواع الرحلات عند الجزائريين خصوصا و المغاربة عموما " فقد سارت قوافل الحجاج المغاربة في مواطن الصحراء واخترقوا الآفاق وجابوا شواطئها وتهدوا الأهوال و الأخطار، هؤلاء الرحالة المغاربة الذين سجلوا ما وقع تحت أعينهم وما لفت أنظارهم وما أثار انطباعاتهم فصوروا حياة ومعاش العباد وتفانوا في جمع المعلومات التاريخية و الحضارية وقد مكنت الرحلات الحجازية المغاربية من تمتين الصلات بين عواصم المغرب الإسلامي ومكة والمدينة..[2]

2- أدب الرحلة

أدب الرحلة هو "تشكيل لنص ذاتي /شخصي بخصوص الأنا و الآخر يأتي متكيفا في شكل معين للتعبير عن رؤية معينة انطلاقا من خطاب مفصح عنه في البداية أو مضمر في تضاعيف السرد و الوصف و التعليقات ".[3]

ما يعني أننا لا نقرأ أدب الرحلة من منظور واحد وهو منظور وصف البلدان فقط و إنما نستشف أيضا طبيعة المجتمع الذي كتبت إليه كتب الرحلات ورؤى هذا المجتمع التي جعلت الرحالة يصوغ رحلته بأسلوب وبنية ما كي تجد قبولا لدى القراء؛ فالأنا هي ذات الرحالة ؛المؤلف؛ السارد؛ والآخر على وجهين : الأول هي المجتمعات التي زارها الرحالة وعني بوصفها و الحديث عنها، و الثاني مجتمع الرحالة نفسه الذي قد لا يبدو ظاهرا في ثنايا السرد نظرا لانشغال السارد بوصف المجتمعات الأخرى ولكن يستشف من خلال ما يبثه السارد من رؤى خاصة نابعة و متوافقة أو متعارضة مع بلده الأصلي و قرائه المتلقين.

أما عن جنس الرحلة " فالرحلة نص مفتوح لا يمكنه أن يتسيج في خانة محددة تجنسه بصفة معينة تضيق من تحرره واتساعه و انتشاره ولهذا فإن القول بنصيتها هو انفتاح على دينامية الرحلة وعلى خطاباتها المستندة على

---

[2] حفناوي بعلي ، الرحلات الحجازية المغاربية ، المغاربة الأعلام في البلد الحرام ، قراءة نقدية ، دار اليازوردي العلمية للنشر و التوزيع ، ص571.

[3] شعيب حليفي ، الرحلة في الأدب العربي ، التجنس ، آليات الكتابة ، خطاب المتخيل ، سلسلة كتابات نقدية ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، 2002 ، ص41

طرفي الذات و الآخر و جسور التعبيرات المختلفة حولها "[4] ما يفسر القول بأن الرحلة نص/خطاب مختلف يحمل أنساقا اجتماعية و ثقافية مختلفة يصورها الرحالة انطلاقا من شخصيته و ثقافته و مكتسباته اللغوية و روافده المعرفية و حتى اتجاهاته العقائدية ولا يمكن له أن يتحرر من هذه التيمات جميعا وهو يوثق رحلته ليحولها من وجودها الفعلي إلى تمثلها اللفظي .

وإذا كان أدب الرحلة يقوم على التنوع في الأساليب من وصف وسرد وحوار " فإن أبرز ما يميزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى ، وقد أفاد أدب الرحلة بغنى موضوعاته في صرف أصحابه في غالب الأحيان عن اللهو و العبث اللفظي و التكلف في تزويق العبارة إيثارا للتعبير السهل المؤدي للغرض لنضجه بغنى تجربة صاحبه مما يفتقده كثير من الأدباء في بعض عصورنا الأدبية "[5].

3- الحركة الإصلاحية في الجزائر و أدب الرحلة

إن الإدراك الذي يتكون عند الأديب لا يتكون عند الإنسان العادي؛ فالنفس البشرية عنده تتقدم و تتأثر وتوحي بشكل مختلف عنها عند الإنسان العادي لذلك يقال إن العبقري أو الأديب يستطيع التعبير عن روح الأمة ويرسم صورة أوضاعها ويتنبه للأخطار التي تحيط بها؛ ويتنبأ بمستقبلها ولهذا كان الأدب رسالة ولهذا أيضا كان الأدب سباقا في فهم أوضاع الأمة و تشخيص أمراضها ورسم مستقبلها و كانت الثورات غالبا ما تسبقها نهضة أدبية و فكرية تدل عليها و تقود الجماهير في طريقها [6]

ولهذا وجدنا أن كثيرا من رموز الحركات الإصلاحية هم أدباء ينظمون الأشعار و يحررون المقالات و يكتبون القصة و يحولون رحلاتهم إلى خطابات أدبية تجمع بين الثقافي و الفكري و الاجتماعي " ويعتبر ابن باديس أول من عالج أدب الرحلة في صورة مذكرات نشرها في مجلة الشهاب وأهم ما كتبه كان يتعلق بتجواله عبر أرجاء الوطن، فهي إذا رحلة داخلية جاءت بعد تأسيس الجمعية سعى من خلالها إلى التعريف بها و الدعاية لها "وكان في رحلاته إلى مختلف المدن و القرى الجزائرية يلقي الدروس في مساجدها الجامعة ويرشد الناس إلى ما فيه الخير و الفضيلة، كما كانت له فيها محاورات عنيفة مع رجال التصوف وغيرهم... إضافة إلى رحلاته الخارجية إلى فرنسا مع الوفد الإسلامي الجزائري ورحلة أخرى إلى تونس [7]

أما رحلات رموز الإصلاح الخارجية فنذكر منها رحلة محمد الغسيري إلى مصر وهي رحلة طويلة مع الكشافة الجزائرية " ولقد تركت هذه الرحلة في نفسه آثارا روحية عميقة أغرته بأن يكتب حولها فصولا لو جمعت لشكلت سفرا كبيرا"[8] أما إن بحثنا عن الجوانب الإصلاحية ألفيناها تعرف القارئ الجزائري يومئذ بما كان يجري في المشرق العربي وما فيه من محاسن ومساوئ، وقوة وضعف وصلاح وفساد ، أي أن الكاتب حاول أن يصور المجتمع العربي في المشرق كما هو؛ بخيره وشره؛ ناهيك عن كونها جعلت القارئ الجزائري يقارن ذلك المجتمع المشرقي بما فيه بالمجتمع الجزائري؛ فينتهي من هذه المقارنة إلى نتيجة تتمثل في فرق ما بين المجتمعين وفي ذلك الفرق الماثل للعيان،

---

[4] المرجع السابق ، ص 40

[5] فؤاد قنديل ، أدب الرحلة في التراث العربي ، ص24

[6] سعدون حمادي ، الأدب والوعي القومي ، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية لمركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، 1984 ، ص33

[7] عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر ، 1931-1954 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1983 ، ص 295-296

[8] المرجع السابق ، ص 297

محل الملاحظة، وموطن التفكير ومدعاة التساؤل و الاستفهام " خاصة أن الكاتب صادف هناك مجتمعا حرا متعلما متعربا وصادف مدارس مفتوحة ومعاهد عامرة وجامعات مكتظة بالطلاب وكل هذا كان حلما بعيدا في الجزائر يومئذ ...وقد أكثر الغسيري من ذكره لهذه المظاهر عله ينبه الجزائريين ويوقظ أرواحهم ويفتح أعينهم على العالم الخارجي فيدفعهم كل ذلك إلى السعي وراء العلم و المعرفة و نبذ الخرافات وتقويم السلوكات و التقدم في سبيل نيل الحرية ..[9]

ثانيا – الأنساق الثقافية والخطاب الأدبي

1– النسق الثقافي

يعتمد النقد الثقافي على مصطلح النسق المضمر الذي يختفي وراء النسق البلاغي والجمالي في الأدب وعلى الرغم من كثرة استخدامه عند النقاد الثقافيين إلا أنه غير واضح المعالم وقد ذكر محمد مفتاح أن " له أكثر من عشرين تعريفا "[10] ما يدل على أنه مصطلح مائع يصعب التحكم في حدوده، وقد عرفه قائلا " هو انتظام بنيوي ينسجم فيما بينه ليولد نسقا أهم و أشمل "[11].

ولعل عبد الله الغذامي أن يكون من أوائل النقاد العرب الذين قدموا توصيفا نظريا للنسق الثقافي اعتمادا على وظيفته التي تتحدد بتعارض نسقين أو نظامين من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمر، بحيث يكون المضمر ناسخا للظاهر ولابد أن يكون ذلك في نفس واحد، أو في ما هو في حكم النص الواحد[12] .

إذا فالقراءة النسقية تحاول قراءة النصوص الأدبية في ضوء سياقاتها التاريخية و الثقافية و الاجتماعية و الإيديولوجية حيث "تتضمن النصوص في بناها العميقة أنساقا مضمرة ومخاتلة قادرة على التمنع ولا يمكن كشف دلالاتها النامية في المنجز الأدبي أو الجمالي إلا بإنجاز تصور كلي حول طبيعة البنى الثقافية للمجتمع وتكوين جهاز معرفي/ ابستيمولوجي من لدن المؤول الثقافي لفك شيفرات المحتملات النسقية للنصوص " .[13]

2– الأنساق الثقافية في رحلة باعزيز بن عمر[14] الحجازية

الخطاب الرحلي خطاب أدبي مختلف، خطاب له خصوصيته وتميزه، بل وتفرده لما فيه من حمولات ثقافية ينقلها الرحالة للمتلقي ممثلة في مشاهداته وانطباعاته حتى أصبح أدب الرحلة " نشاطا فكريا يتخذ من الثقافة بشموليتها موضوعا لبحثه وتفكيره ويعبر عن مواقف إزاء تطورها وسماتها "[15]

---

[9] المرجع نفسه ، 298

[10] محمد مفتاح ، التشابه و الاختلاف ، نحو منهجية شمولية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط1 ، 1996 ، ص 159

[11] المرجع نفسه .

[12] عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط4 ، 2008 ، ص 77

[13] يوسف عليمات ، النسق الثقافي ، قراءة في أنساق الشعر العربي القديم ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط1 ، 2009 ، ص11

[14] **باعزيز بن عمر** (1906-1977م) اسمه الحقيقي عبد العزيز بعزي؛ ولد في قرية آت حماد الواقعة في عرش إعزوزن دائرة أزفون ولاية تيزي وزو؛درس على يد والده القرآن ومبادئ الدين؛ وهو واحد من الثلة المبكرة التي تتلمذت على يد الإمام عبد الحميد بن باديس ، حرر العديد من المقالات في مجلة الشهاب الباديسية وجريدة البصائر كما كان أحد أعلام النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر كاتبا و خطيبا ، كتب في الخطابة و الرحلة و المقالة و المحاضرة و المسرحية من آثاره : كتاب دروس الأخلاق والتربية الوطنية، الجزائر الثائرة وهي مسرحية تاريخية، رحلته الموسومة برحلتي إلى البقاع المقدسة، من ذكرياتي عن الإمامين عبد الحميد بن باديس و محمد البشير الإبراهيمي.، ينظر محمد بن محمد العطوي بن سمينة ، قراءة في كتاب " رحلتي إلى البقاع المقدسة " للأستاذ الشيخ باعزيز بن عمر ، مجلة الدراسات الإسلامية ، ع7

[15] ميجان الرويلي ، سعد البازعي ، دليل الناقد الأدبي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط3 ،2002 ، ص 305

لقد قدمت الرحلة للأدب العربي مادة ثقافية متعددة الأوجه، وساهمت في تقييد الأحداث وسرد التاريخ والتوثيق لمراحله المختلفة كرحلة ابن جبير لبلاد البلغار ورحلة ابن فضلان لبلاد الصقالبة ورحلة أفوقاي الأندلسي إلى البرتغال هروبا من ملاحقات محاكم التفتيش المسيحية لمسلمي غرناطة .

وجل هذه النصوص تتضمن "بنيات كاملة يؤرخ فيها المرتحل للفترة التاريخية التي استغرقتها رحلته فضلا عن الأحداث التي عاصرها من منظور يعتمد المعاينة و القراءة و التأويل و السماع " [16]والرحلة الحجازية واحدة منها، إذ كثيرا ما يتجاوز فيها أصحابها الغرض الديني و العقائدي الذي من أجله شدوا الرحال، رغبة منهم في التعرف على الآخر وحدوده ورؤيته وطريقة تفكيره ومعايشه ومدى مطابقتها في مجلها للصورة التي رسمها في ذهنه من خلال السماع أو القراءة...ولهذا " فعنصر التفاعل في الرحلة مزدوج ومتباين ذلك أن هناك ثقافة ما قبل الرحلة الفعلية وهي الثقافة الموجهة المهيئة للاستقبال تتحوط بمجموعة من الانطباعات المرفودة بصور وتخيلات أو معارف سماعية أو مستقاة من رحلات سابقة تخضع للتحويل والتأويل ؛ إنها ثقافة ما قبل الرحلة الموجهة مقابل ثقافة ما بعد الرحلة حيث تصطدم الانطباعات و المعارف القبلية المسبقة مع المشاهدات التي تكونت إدراكا جديدا ينضاف إلى تلك الانطباعات " [17].

ونص رحلة باعزيز بن عمر يضمر في طياته الكثير من الحمولات الثقافية للمحطات التي مر بها و المجتمعات التي تعرف عليها، وكل مجتمع منهم له نظام ثقافي معين يحيا فيه ويعيش به يختلف عن الآخر وهو في ذلك ينحو منحى كثير من الكتاب الجزائريين الذين " حاولوا أن يكتبوا مذكرات معظمها دبج في وصف الرحلات الداخلية و الخارجية وسجلوا المشاهدات و اللقاءات فنجد ابن باديس رائدهم القوي وإلى جانبه محمد الغسيري و محمود بوزوزو وحمزة بوكوشة وغيرهم ... .ولعل أهم هذه الأنساق :

3- النسق الثقافي/الاقتصادي

أ- المدنية الحديثة

إن "الدعوة السلفية التي دعت إليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لم تمنعها من توجيه نظرها إلى المستقبل والأخذ بأسباب المدنية الحديثة، وعبارات التقدم و النهضة والرقي كانت ملازمة لكل توجه خطابي أو كتابي نحو الشعب كما كانت هذه العبارات تطلق على بعض المؤسسات الاجتماعية والثقافية [18].

يثبت ذلك ما جاء في حديث جريدة الشهاب على لسان عبد الحميد بن باديس حين خاطب المسلم الجزائري قائلا " كن ابن وقتك تسير مع العصر الذي أنت فيه بما يناسبه من أسباب الحياة وطرق المعاشرة والتعامل، كن عصريا في فكرك وفي عملك وفي تجارتك وفي صناعتك وفي فلاحتك وفي تمدنك ورقيك...احذر من التوحش فإن التوحش في عصر المدنية محكوم عليه طبيعيا بالتناقض، واحذر من التعصب الجنسي الممقوت فإنه أكثر علامة ومن علامات الهمجية والانحطاط ... "[19].

---

[16] شعيب حليفي ، الرحلة في الأدب العربي ، ص 68

[17] المرجع نفسه ، 92

[18] أحمد الخطيب ، جمعية المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985 ، ص 226

[19] الشهاب ، العدد 49 ، 23 أوت 1926

ما يدل على موقف الجمعية الإيجابي من المدنية الحديثة و موقف باعزيز لم يكن بدعا ، إذ يذكر في المحطات التي نزل بها مرسيليا بفرنسا مرورا بغيرها من المدن الفرنسية ، ثم إيطاليا ومنها إلى بعض البلدان العربية (سوريا ، لبنان ، فلسطين الأردن فالمملكة العربية السعودية) قال " كانت رحلتنا إلى البقاع المقدسة رحلة جوية حرة شملت قسما من أروبا الغربية ، وقسما من الشرق ، قبل أن نحط رحالنا بها ، فمكنتنا من الدراسة والنظر والمقارنة حيثما حللنا وارتحلنا" [20]

وقد وقف في البلاد الأوروبية على مظاهر العمران ومنجزات المدنية الحديثة "والحقيقة أن هذه المنظومة من القيم المدنية هي من أساسيات وأصول وتعاليم ديننا، زهد فيها أهل الشرق وقعدوا عن طلبها ...ولم يفت الكاتب في هذا السياق أن يتوجه بعتاب لإخوانه المسلمين جراء تقاعسهم عن البحث وما ينتج عنه من تقنية و عمران ..."[21].

ب- بين المادي و الروحي

لقد نوه الشيخ باعزيز بن عمر في رحلته هذه بالحضارة الغربية وما اعتلته في سلم المجد وما حققته من رفاه لشعبها؛ لكن المضمر وراء هذه الإشادة يوضح الهدف الحقيقي لصاحب الرحلة والمتمثل في رغبته في استنهاض الهمم والدعوة إلى العلم والإخلاص والذي ينتهي إلى العمل والإتقان وإلا " كيف له أن يشيد بأفضالها وهو واحد من جماهير شعب اكتوى بنار استدمارها وتلظى بجحيم استكبارها طوال قرن وثلث وما يزال " .[22]

هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى لا يتعارض هذا الموقف مع منهجه الإصلاحي إذ لا ينفك الشيخ باعزيز- كغيره من أعضاء جمعية العلماء المسلمين- يوجه ويرشد ويعمل علة تنوير العقول وتحرير النفوس ودفعها إلى النهضة و العمل واللذان هما من مبادئ الدين الإسلامي ...

4- النسق الثقافي/ الديني

للبقاع المقدسة رمزية خاصة ليس للمسلمين فحسب بحكم أنها مرتبطة بشعيرة من شعائر الإسلام؛ وإنما رمزيته ممتدة إلى ما قبل الإسلام فقد كانت رعاية البيت و إطعام الحجيج والسقاية و السدانة في الجاهلية شرفا تتسابق عليه القبائل .

ومنذ بزوغ فجر الإسلام تغيرت المقاصد وأصبح الملتقى السنوي يعقد فتقصده الأرواح طامعة في التطهير راجية وجه القدير أن تعود إلى ديارها وقد مسحت عنها ذنوب السنين..

وفي الأدب العربي " بالعصر الأموي و ما بعده من عصور إلى العصر الحديث صور كثيرة جدا تعكس مدى تأثر الشعر والشعراء برحلة الحج ومشاهده ووسائل الوصول إليه ."[23]

أ- الحنين إلى البقاع المقدسة ودوافعه

---

[20] باعزيز بن عمر ، رحلتي إلى البقاع المقدسة ، منشورات تالة ، الجزائر ، 2005.

[21] محمد بن محمد العطوي بن سمينة ، قراءة في كتاب " رحلتي إلى البقاع المقدسة " للأستاذ الشيخ باعزيز بن عمر ، مجلة الدراسات الإسلامية ، ع7

[22] المرجع نفسه.

[23] عبد العزيز الرفاعي ، الحج في الأدب العربي ، المكتبة الصغيرة ، ط1975 ، ص40

شغل فضاء ذلك المكان المقدس الأدباء بمحطاته المتتابعة من وقوف على عرفات ومبيت في مزدلفة ورمي للجمار وطواف حول البيت العتيق وسعي بين الصفا و المروة وقبل ذلك وبعده شغف الوصول وحزن الوداع ..

ولعل الكثير من رحلات المغاربة عموما كان وراءها " دافع ديني قبل كل شيء؛ و إن الرغبة الملحة التي كانت تساور النفوس هي مغادرة الأوطان لتأدية فريضة الحج فابن العبدرى وابن رشد و ابن بطوطة كلهم غادروا أوطانهم للقيام بهذه المهمة الدينية "[24] .

تقدم الرحلات الحجازية المغاربية عموما لونا من الأدب الرحلي فيه ألوان و أشكال من أدب الشوق و الاحتراق لعناق طيبة و البلد الأمين فقد كان للمغاربة "وضعهم التاريخي والجغرافي الخاص والذي يجعل شوقهم وحنينهم إلى تلك البقاع أكثر تميزا وأكثر حرقة من أشواق الآخرين؛ ناهيك عن طبيعة المواصلات آنذاك وصعوبتها في البر و البحر " [25]ف وإذا وضعنا هذا نصب أعيننا فهمنا حجم الشوق لتلك الديار الطيبة؛ ولهذا فإننا نجد المغاربة عموما و الجزائريين خصوصا إذا ما كتبوا في هذا الموضوع وهم بعيدون تنطلق كلماتهم معبرة عن رغبتهم الجامحة في أن يكونوا مع الركب المغادر؛ من ذلك قول محمد بن الجنان البجائي في قصيدة يناجي فيها ركبا سائرا إلى مكة المكرمة ؛ يقول [26]:

يا حادي الركب قف بالله يا حادي وارحم صبابة ذي نأي و إبعاد
ما ينبغي عنك إلا أن تصيح له سمعا ليسأل عمن حل بالوادي
بين الجوانح نار للجوى وقدت فإن قدرت فأخمد بعض إخماد
أشتاقهم فإذا رمت الوصول بهم ألقي القواطع عن إلف بمرصاد

فإن تحققت هذه الأمنية فاضت القرائح معبرة عن جلال المكان وروحانيته وهو ما لمسناه في حديث باعزيز بن عمر وهو يتحدث عن البقاع المقدسة فيصفها وصفا ظاهريا يذكر فيه كل ما وقعت عليه عينه ، ويصف مشاعر المعتمرين والحجاج وهي تفيض شوقا وحبا للبقاع المقدسة.

5- النسق الثقافي/الاجتماعي

أ- بين العادة و العبادة

يعتبر موسم الحج اجتماعا إنسانيا من نوع خاص؛ تهوي إليه الأفئدة من كل فج ؛ جعله الله تعالى موسما تجتمع فيه الأجناس البشرية المختلفة وتتقاطع فيه العادات و التقاليد المتباينة وتلتقي فيه الأرواح أين يحصل لها من السمو والرفعة مالا يكون في لقاء آخر؛ لكن و بالرغم من قدسية الزمان و المكان وارتباطهما بشعائر دينية ترفع النفس البشرية إلى رقي روحي و أخلاقي متفرد إلا أن الكثير من المشاركين في هذه الشعائر يحيدون عن الدور المنوط بهم في مثل هذه المناسبات الدينية فيحافظون على ما كانوا عليه خارج تلك الديار المقدسة من فوضى و غياب للنظام وازدحام لا يراعون فيه حق مريض أو هرم؛ رجل أو امرأة بل تظهر فيه من المظاهر السلبية التي تمس

[24] محمد بن أحمد شقرون ، مظاهر الثقافة العربية ، دار الثقافة ، المغرب ، 1985 ، ص171

[25] الربعي بن سلامة ، الشوق و الحنين إلى البقاع المقدسة في الشعر المغربي و الأندلسي ، منظمة شعبة الأندلس ، 2009

[26] محمد بن رمضان شاوش ، الغوثي بن حمدان ، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر ، دار البصائر للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 2011 ، ص339-

مقاصده كقلة النظافة وانتشار ظاهرة التسول وغيرها من الظواهر التي تتنافى و حرمة هذا البيت المطهر بل وتمس بشعيرة من أعظم شعائر الإسلام.

إن أكثر الأمراض التي تنخر جسد الأمة الإسلامية هي بسبب عدم تمثلها للدين الإسلامي تمثلا صحيحا وعدم القدرة على فهم مقاصده فهما سليما ما أوقع الكثير من المسلمين في ممارسة تعاليم الدين الحنيف ممارسة سطحية وتحويل البعض منهم لشعائره إلى مجرد طقوس و حركات؛ يقول الشيخ باعزيز بن عمر في هذا السياق متحسرا " آه من إسلام حوله جهل المسلمين إلى طقوس و حركات و أقوال لا تمت إليه بسبب مما يأتيه بعض المسلمين داخل مسجد نبيهم فهذا راقد وهذا يأكل و يشرب وذاك يهرج أمام جمع من أصحابه وهو يظن أنه يحسن صنعا ويعلم ويفقه غيره في دينه "[27].

فعلماء الجمعية والشيخ باعزيز منهم إنما كانوا ينشدون مجتمعا مسلما واعيا لذلك كان منطلقهم "تفسير القرآن و إقامة حلقات الوعظ و الإرشاد ودعوة الناس إلى التمسك بأهداف الدين القويم ورفض الخرافات و البدع التي التصقت به؛ وما هي منه في شيء؛ وقد تمكنوا بفضل ثباتهم في الدعوة في توعية الناس الذين أخذوا يتخلون عن عادات كانوا يعتقدون أنها من صلب الدين ..."[28]

هذا الوعي الذي كان يفترض أن يظهره المسلم في مثل هذه المناسبات و التجمعات فلا يصدر منه ما يشين؛ وبذلك يحقق الهدف الحقيقي من هذه العبادة والذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم " من حج البيت فلم يرفث....." فشرط قبول هذه المهمة وهذه العبادة مرهون بخلق المسلم و تحليه بالصبر و الحلم و عدم أذية الآخرين .

ب- التفاوت في الجاهزية لأداء مناسك الحج

من الحمولات الثقافية التي ألفيناها مبثوثة بين طيات الخطاب الرحلي للشيخ باعزيز بن عمر حديثه عن التفاوت بين سلوكات الحجاج والتي هي في الحقيقة مرتبطة بمدى جاهزية هذه الفئة لأداء مناسك الحج ذلك أن " انتشار ظاهرة الجهل بين كثير من الحجاج مما أدى إلى ضعف قدراتهم على استيعاب التعاليم وعجزهم عن السمو إلى مقام ما ترشد إليه تلك التعاليم من قيم و أخلاق؛ ناهيك عن النقص في العناية اللازمة بتكوين الحجاج وحسن إعدادهم في بلدانهم بما يمكنهم من السمو بسلوكاتهم إلى مقام هذه الرحلة الميمونة ، أضف إلى ذلك تقصير بعض البعثات المرافقة لهم المكلفة برعايتهم في القيام بواجبها نحوهم وقصورها في متابعة شؤونهم خاصة بالنسبة للعجزة وكبار السن وذوي المستوى التعليمي الضعيف. "[29]

هذه العوامل و غيرها قد تعلل المظاهر الاجتماعية السائدة في مناسبة الحج فتؤدي مجتمعة إلى غياب الروحانيات والمقاصد الحقيقية لهذا الاجتماع الإنساني المتفرد..

وما يزيد الصورة وضوحا تواجد وفود أخرى بأخلاقيات مختلفة واستعداد محكم لمثل هذه المناسبات كالوفود القادمة من بعض الدول الإسلامية مثل ماليزيا و أندونيسيا ما يبين عن الاختلاف في مستوى تكوين الحجاج و مدى العناية التي يتلقونها ، ، وفي هذا ما يجعل الزائر لتلك البقاع يلحظ الفروق بين السلوكات و الاستعدادات

---

[27] باعزيز بن عمر ، رحلتي إلى البقاع المقدسة ، ص68

[28] ينظر أحمد الخطيب ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي ، ص226 وما بعدها

[29] ينظر، العطوي بن سمينة ، قراءة في كتاب رحلتي إلى البقاع المقدسة ، 155-156

والظاهر أن هذه الملاحظات قد اشترك فيها الكثير من الرحالة الجزائريين ،يقول عبد القادر خليفي متحدثا في رحلته إلى البقاع المقدسة عن وفود الحجاج وتحديدا وفد ماليزيا و أندونيسيا " ...هناك الماليزيون و الأندونيسيون وهم يسيرون منظمين في جماعات معها مرشد وهم بلباس موحد؛ ويحملون شارات متشابهة أو أشرطة على اللباس ذوات لون معين يرددون الأدعية المأثورة خلف المرشد باللغة العربية .." [30] .

إن نزعة الشيخ باعزيز الإصلاحية جعلته يركز على المناحي الاجتماعية المختلفة و عقد المقارنات بين السلوكيات المتباينة التي عايشها بل إن غيرته على الدين الإسلامي و حرصه على التمثل الصحيح للدين الإسلامي والممارسة الصحيحة لشعائره جعلته يصور هذه الأوضاع التي رآها بمرارة وتحسر كبيرين..

الخاتمة و التوصيات

1- **يعد خطاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين خطابا واقعيا يحاكي معايش المجتمع الجزائري ، ويعبر عن آلامه وآماله .**
2- **عملت خطابات الجمعية باختلاف أجناسها على ترسيخ الوعي الثقافي في نفوس الجزائريين**
3- **النص الرحلي لباعزيز بن عمر مثل نموذجا للأدب الملتزم الذي يهدف أصحابه إلى التغيير**
4- **حمل هذا النص الكثير من الأنساق الثقافية التي تنبئ عن احتكاك علماء الجزائر بأوطانهم وتماهيهم في مشكلاتها محاولين وضع أيديهم على العلة ومن ثم إيجاد حلول لها..**

- **قائمة المصادر والمراجع**

1. أحمد الخطيب ، جمعية المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985 .
2. أحمد سيد حسن السيد محمود ، الأنساق الثقافية في قصيدة المديح عند تميم بن المعز ، مجلة كلية التربية ، جامعة عين شمس ، ع26 ، 2020 .
3. باعزيز بن عمر ، رحلتي إلى البقاع المقدسة ، منشورات تالة ، الجزائر ، 2005.
4. حفناوي بعلي ، الرحلات الحجازية المغاربية ، المغاربة الأعلام في البلد الحرام ، قراءة نقدية ، دار اليازوردي العلمية للنشر و التوزيع
5. الربعي بن سلامة ، الشوق و الحنين إلى البقاع المقدسة في الشعر المغربي و الأندلسي ، منظمة شعبة الأندلس ، 2009
6. سعدون حمادي ، الأدب والوعي القومي ، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية لمركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، 1984
7. شعيب حليفي ، الرحلة في الأدب العربي ، التجنس ، آليات الكتابة ، خطاب المتخيل ، سلسلة كتابات نقدية ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، 2002 ، الشهاب ، العدد 49 ، 23 أوت 1926
8. عبد العزيز الرفاعي ، الحج في الأدب العربي ، المكتبة الصغيرة ، ط1975
9. عبد القادر خليفي ، رحلتي إلى البقاع المقدسة ، مجلة عصور الجديدة ، ع24 ، أكتوبر 2016
10. عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط4 ، 2008 ، ص 77.

[30] عبد القادر خليفي ، رحلتي إلى البقاع المقدسة ، مجلة عصور الجديدة ، ع24 ، أكتوبر 2016 ، ص 412

11.عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر ، 1931-1954 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1983 ،
12.فؤاد قنديل ، أدب الرحلة في التراث العربي ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، ط2 ، 2002
13.فؤاد قنديل ، أدب الرحلة في التراث العربي ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، ط2 ، 2002
14.محمد بن أحمد شقرون ، مظاهر الثقافة العربية ، دار الثقافة ، المغرب ، 1985
15.محمد بن رمضان شاوش، الغوثي بن حمدان ، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر ، دار البصائر للنشر و التوزيع ، الجزائر 2011،
16.محمد بن محمد العطوي بن سمينة ، قراءة في كتاب " رحلتي إلى البقاع المقدسة " للأستاذ الشيخ باعزيز بن عمر ، مجلة الدراسات الإسلامية ، ع7.
17.محمد مفتاح ، التشابه و الاختلاف ، نحو منهجية شمولية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط1 ، 1996 ، ص 159 .
18.ميجان الرويلي ، سعد البازعي ، دليل الناقد الأدبي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط3 ،2002.
19.يوسف عليمات ، النسق الثقافي ، قراءة في أنساق الشعر العربي القديم ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط1 ، 2009.